AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00858 0866

SOS
Library of
The American University
at Cairo

School of Oriental Studies
of
the American University at Cairo

LG
511
C45
A6x
1945

المشكلات — ٢

رسالة الأزهر

في القرن العشرين

بقلم

محمد عرفه

عضو جماعة كبار العلماء

مطبعة السعاده بجوار محافظة مصر

297-6
ar/11m
sds

٣٧٧,٨
٤٩٠(
٢

28287

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، وبعد ،

فليس فى الأرض معهد إسلامى أجل فى نفوس المسلمين من الأزهر وليس فى الأرض معهد إسلامى أكثر طالبا غريبا وقريبا من الأزهر

وليس فى الأرض معهد إسلامى أجمع لصنوف أمم الاسلام المختلفة من الأزهر

فقد وفد إليه وافدون من ممالك الاسلام القريبة والبعيدة ، ففيه الجاوى والهندى والدورى واليمنى والعراقى والفارسى والمغربى ، يطلبون العلم ويردون موارده . فان استقوا عذبا فراتا مجوا فى أممهم عذبا فراتا ، وإن استقوا صابا وعلقما مجوا فى أممهم صابا وعلقما فهو من العالم الاسلامى كالقلب من الجسد إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله فهو ليس للمصريين وحدهم بل لأمم الاسلام جميعا ، فمن قتله فكأنما قتل أمم الاسلام جميعا . ومن أحياه فكأنما أحيا أمم الاسلام جميعا .

— ١ —

إذا كانت منزلة الأزهر من العالم الاسلامى هذه المنزلة فمن الحق أن تكون رسالته فى القرن العشرين هى فهم الدين الاسلامى على وجهه ، وتفهيم المسلمين إياه على وجهه .

إن الدين الاسلامى فهم كثير منه فى العصور المتأخره على غير وجهه ودخلت فيه بدع وزوائد لم تكن منه ولا توافق روحه فأضرت بدنيا المسلمين وأخراهم .

فرسالة الأزهر أن يفهم الناس الدين على وجهه ، وأن ينقيه من الزوائد والشوب ، وأن يصفيه من الكدر ليعود حلوا جناه ، وعذبا مشربه ، وبذلك يمكن أن يقوم بما يأتى :

ا ـ إحياء أمم الشرق ، وذلك باحياء الأخلاق فيها وذلك باحياء لدين وعمارة نفوسهم باليقين .

ب ـ إصلاح الأسر الاسلامية بتنظيم الزاج والطلاق فيها وجعل رباط الزوجية متينا جدا أمتن مما هو عليه الآن .

حـ ـ صياغة المعاملات لاسلامية على وجه يتفق والنظريات الاقتصاديه ولا يخالف روح الدين .

د ـ صبغ الروح الاسلامية بالصبغة الاستقلاليه وذلك باعتناق العقيدة التى تجعل المرء حرا مختارا مسئولا عن كل مايعمل بقدر ما أعطى من حرية واختيار .

هـ ـ بث العقول من مراقدها وإنهاض قوى الانتاج العقلى من سباتها وإجلال العقل الانسانى ، واحلاله منزلته العليا فى الوجود التى ليس بعدها منزلة والتى جعلت الدين يتحاكم إليه فيما شجر من خلاف بينه وبين الناس ـ والتى جعلت من مبادىء الاسلام أن يؤول النقل إذا تعارض مع العقل .

و — ربط حديث الأمة بقديمها فيحافظ على اللغة العربية وعلى علوم الأوائل ويعرضها على الجيل الحاضر فى معرض حسن جذاب يشوق إلى قراءتها والتمتع بها

هذه رسالة الأزهر وهى رسالة نبيلة حقا لا سيما إحياء أمم الشرق باحياء الأخلاق والدين فيها ، فاذا كان واجب الطب أن يصح الأبدان ، وواجب الهندسة أن تقيم القناطر والجسور ، وواجب الزراعة أن تخصب الأرض ، فواجب الأزهر — على نبل هذه الواجبات — فوقها نبلا وتماسة .

إن أمم الشرق قد ونت وتخلفت ، وإن أمم الغرب قد جدت فتقدمت ، وإنه قد احتكت المدنية الغربية بالشرق ، فأخذ اسوأ مافيها من دعارة وتهتك ، وإباحية وإلحاد ، وانغماس فى الشهوات الجسديه ، وترك خير مافيها من جد وعمل وسعى وإصلاح وتقدم وابتكار .

هذه الرذائل فى الغرب يغمرها ماء دهم من فضائل ، وهى لاتحلل من الغرب بقدر ماتحلل من الشرق ، لأن الغرب جسمه قوى حصين ، والشرق جسمه ضعيف متداع . والجراثيم افتاكه لاتحلل الجسم القوى ذا الحصانة ويضعف الجسم الضعيف عن مقاومتها فتضعفه وتبليه . فواجب رجال الأزهر أن يوقظوا هذه الأمم من سباتها ، ويقيموها من رقدتها ، ويباعدوا بينها وبين ما ارتكست فيه من شهوات وإباحية وإلحاد .

إنه لا يضطلع بهذا الأمر العظيم إلا كل رجل عظيم ، إنه يحتاج إلى الصبر . فاصبروا أيها الأزهريون كما صبر أولو العزم من الرسل ، ويحتاج إلى إرادة قوية فصبوا فى إرادتكم عنصر الحديد ويحتاج إلى التجرد من الشهوات الدنيئة والمطامع الفانية ، والى كراهية للجاه الزائف ، والشرف الباطل ، فكونوا سماويين علويين أطهارا أبرارا روحانيين ، أجسادهم فى الأرض ونفوسهم فى السماء ، بل كونوا

ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب و بما كنتم تدرسون .

يجب أن تستزيدوا من العلم ، وأن تتسابقوا به ، فالعلم قوة بل هو أعظم قوة فى الوجود ، فكونوا فى وسط الكتاب أقوى الكتاب والمنشئين ، ومع المؤرخين أعلم المؤرخين ، ومع رجال الاجتماع أنفذ رجال الاجتماع بصرا . ومع الفقهاء ورجال التشريع أعظم رجال الفقه والتشريع

ويجب أن تتدرعوا بدروع الأخلاق فالأخلاق دروع حصينة، وأن تستعينوا على خوض غمار الحياة بالصبر والعزم ، والاقدام والحزم ، وأن تتساموا إلى معالى الأمور وإلى عظائمها

وإنما طلبنا إليكم أن تبلغوا الغاية فى كل فن ،وأن تستولوا على الأمد فى كل سباق ، لأنا نريد لكم أن تكونوا قادة أمتكم ، والنفوس لا تقر بالقيادة إلا لمن رأت منه مواهب أعلى من مواهبها ، وبهرها ماتجده فيه من علم وخلق

واعلموا أن موقفكم الذى أوجدكم فيه القدر الآن أصعب من موقف أسلافكم وأنه يقتضى من الجهود أضعاف ما بذله أسلافكم ، فقد كان أسلافكم هم قادة الفكر فى زمنهم ، لا ثقافة فى البلد إلا ثقافتهم ، ولا علم إلا علمهم ، فكان الشعب يرد موارد علمهم ولا يعرف غير موردهم موارد ولا غير مشرعهم مشارع

أما الآن فقد تعددت الثقافات ، وتنوعت المشارب، ولن يرد الشعب إلا أعذبها موردا ، وأصفاها مشربا

فى مصر ثقافات مدنية ، وأخرى لا دينية. فلتجاهد الثقافة الدينية وسط هذه الثقافات ، ولتجعل عدتها البيان، فلن يكسب القلوب إلا أحسن هذه الثقافات بيانا وأقواها برهانا

— ٢ —

أعلم أن من الناس من يتكر أن يكون ذلك كله من رسالة الأزهر وأنه ليس من الواجب على الأزهر تربية الأخلاق فى الأمة . وأعلم أن من الأزهريين أنفسهم من تملصون من هذه التبعات ، يقولون أن الأزهر معهد تعليم للغة والدين ولا يطالب بأكثر من ذلك فمهمته علمية ، لا عملية فلا تكلفوه أكثر مما يطيق وإلى هؤلاء وأولئك أسوق الحديث

لمن وكلت رعاية الأخلاق فى مصر ؟ وأى الطوائف يجب عليها أن تعنى بها فيها فتعمل على غرس الأخلاق الفاضلة فى نفوس المصريين ، ونزع الأخلاق الجاهلة منهم ، وتعمل على حفظها وتثبيتها ؟

حفظ الصحة فى مصر موكول إلى وزارة الصحة ، فعليها أن تقيها من الأمراض وعليها أن تقوم بكل مايحفظ على المصريين صحتهم . وبكل مايدفع عنهم عدوى الأمراض المعدية . وغائلة الأمراض الوافدة

ومالية مصر موكولة إلى وزارة المالية فهى التى تحفظها ، وتوازن بين دخل الحكومة وخرجها ، وتوزع الميزانية على حسب المصلحة وهكذا فروع الحياة فى مصر لها من يقوم بها ويعنى بأمرها ، وهو مسئول عنها إن قصر فى هذه العناية

فمن للأخلاق فيها ؟ من نيط به حفظها والقيام عليها وهو مسئول عنها إن قصر فى رعايتها ؟

لما وفدت حمى الملاريا على مديرية قنا وإسوان ، التفت المصريون إلى وزارة الصحة يعتبون عليها ويحاسبونها حسابا عسيرا وهى قد قامت بردم البرك والحجر الصحى وتقديم الأدويه وقتل جراثيمها وعمل كل مايمكن لمطاردة المرض وحصره لئلا يتفشى فى سائر بلدان القطر ، فمن نهرع إليه نحاسبه إذا تفشت الأمراض الخلقية

واستفحل شرها ، من نقول له قصرت وكان يجب ان تعمل وهو من جانبه يقوم بمكافحة المرض وحصره وتخفيف ويلاته شروره

اننى افتش فلا أجد من يتحمل مسئولية الأخلاق ظاهرا أتركت فى مصر بدون رعاية ؟ أبلغ من هوانها على الأمة ألا تكل أمرها إلى طائفة مخصوصة يقومون بها ويسألون عنها ؟

إن الأخلاق أعز شىء فى الوجود فهى أ لى بأن يعنى بها ، ويوكل بها القادرون على حفظها ورعايتها

أن الأخلاق عليها رقى الأمة وانحطاطها ، وتقدمها وتأخرها . وسعادتها وشقاؤها ، فليس من الممكن أن يغفل أمرها . فلنبحث فى طوائف الأمة لعلنا نجد من هو بحكم مركزه مسئول عنها

لعل أقرب الطوائف إلى ان يكونوا مطالبين بحفظ أخلاق الأمة ومطاردة الرذيلة فيها ، وجلب الفضيلة إليها . هم رجال الدين الذى يمثلهم الأزهر فى مصر فهم العلماء وورثة الأنبياء ، والنبي يقول أنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق فاذا كان النبي قد جعل الغرض الأهم من بعثته مكارم الأخلاق ، وغرسها فى نفوس المسلمين ، وحفظها والقيام عليها فما أحق ورثته أن تكون تلك مهمتهم وأن تكون قد نيطت بهم ، يسألون عنها إذا قصروا فيها — لقد كان النبي داعيا إلى الفضيلة ومنفرا من الرذيلة ، والقرآن مايىء بالدعوة إلى الصدق والأمانة والبذل والشجاعة ، والعفة والنهى عن الكذب والخيانة والفجور والبخل والجبن . وقد تعقب الفضائل فضيلة فضيلة والرذائل رذيلة رذيلة فلم يترك فضيلة الا حض عليها . وشوق اليها ، وبين مالها من جزاء ومثوبة ، ولم يترك رذيلة إلا نفر منها ، وبين ماعليها من جزاء وعقاب ، لقد كان نبي الاسلام يحارب الرذائل بالقول إن نفع القول ، وبالفعل أن

لم يكن إلا الفعل ، وكن يثبت الفضائل كذلك بالفعل والقو فمن الحق على خلفائه أن يكونوا كذلك

الآن علمت أيتها الأمة من المسئول عن الأخلاق فى مصر فاذا رأيت العفة قد ضعفت والأمانة قد اضمحلت ، وإذا زاد الفسق والفجور ، فلتهرع إلى الأزهر وسلى علماءه فالعلماءهم المسئولون

وإذا رأيت التجار حملهم الجشع إلى المبالغة فى الأسعار وعلى حجز أقوات الأمة عنها ، فالتفتى إلى الأزهر وسليه لماذا قصر فى بث الأخلاق الفاضلة فى التجار فهو المسئول ، وإذا رأيت العرى على الشواطىء المصرية ورأيت الصيانة قد هتكت أستارها ، ورأيت الاحتشام قد ذهب وولى ، ورأيت المكنونات المصونات ، قد تكدسن لحوما بشرية على الشواطىء ، فولى وجهك شطر الأزهر فالأزهر هو المسئول الأول والأخير عن ذلك وإذا رأيت الموظفين قد تلاعبوا بوظائفهم ، واتخذوها طريقا للاثراء والكسب وخانوا أماناتهم ، ولم يؤدوا واجباتهم فليس إلا الأزهر من مسئول

اعلم أن الأزهر يتملص من تبعاته ويهرب من واجباته ويقول أنا معهد علمى للتعليم فمهمتى هى التعليم وتخريج العلماء وليس على من مهمة غيرها وهذا تصور خاطىء لمهمة الأزهر ومما يؤسف له أن الكثرة المطلقة من الأزهريين تفهم هذا فتقصر فى واجباتها بحسب هذا التقصير فى الفهم

ما رأيت طائفة تسعى فى الحد من اختصاصها وتقلل من مهماتها مثل طائفة الأزهر

الناس يسعون فى أن يوسعوا من اختصاصهم ، وربما اعتدوا على اختصاص غيرهم إلا الأزهر فأنه يضيق من اختصاصه ، وإذا اعتدى أحد على واجبات سلم

له بدون أن يحرك ساكنا أو يبدى اعتراضا

— ٣ —

هذا هو المثل الأعلى الذى يجب أن يكون عليه الأزهر، وهـذا هو المثل الأعـلى للرسالة التى يجب عليه أن يؤديها لمصر وللشرق، ومما لا شك فيه أنه لا يؤدى الآن هذه الرسالة على وجهها وأمنية العالم الاسلامى أن يؤديها على وجهها وليس الطريق إلى ذلك التعلل بالآمال، وإنما الطريق هو مايسير عليه علماء العصر فى معالجة الأمور، إنهم يعتقدون أن لـكل شىء فى الـكون عللا وأسبابا، فلنجاح الأمم والأفراد والجماعات علل وأسباب، ولفشلها علل وأسباب، ثم يبحثون عن العلل التى تؤدى إلى الفشل لتجتنب، والعلل التى تؤدى إلى النجاح لتتبع

لقد مضى ذلك الزمن الذى كان يظن فيه أن الأوامر والنواهى والأنظمة كفيلة بالاصلاح. أو أن التقدم والتأخر بالمصادفة والاتفاق، وأصبح الناس يبحثون عن العلل النفسية والأمراض الاجتماعية التى تؤدى إلى مايرونه من ظواهر، إذا عرف السبب للفشل النجاح؛ سهل تلافى كل مايمكن أن يؤدى إلى الفشل وعمل كل مايؤدى إلى النجاح

وسنأخذ فى تعرف هذه العلل على قدر الطاقة وسنصف الدواء على قدر الاستطاعة، وبحسبنا أننا بذلنا الجهد، ومن بلغ جهده فقد بلغ عذره

— ٤ —

أن التعليم فى الأزهر لم يصبغ بالصبغة الأخلاقية ولم يعن فيه بالخلق كما يجب فهو مصبوغ بالصبغة اللغوية والفقهية والـكلامية فهو معنى بعلوم اللغة وعلم الفروع وعلم الـكلام ولهذه العلوم الشأن الأول عنده وليس للاخلاق هذا الشأن والقرآن

والحديث يدرسان دراسة فقهية لغوية ولا يعنى فيها بالعبر والاخلاق وسنن الله فى الوجود

ومن المعلوم أن العلوم اللغوية والكلامية والفروعية لا تهذب خلقا ولا تثبت فضيلة إلا بالعرض فما لأحكام الطهارة والغسل والبيع والعرض والجوهر الهيولى والصورة والأعراب والبناء وللأخلاق ، إنها لا تؤثر فيها من قريب ولا من بعيد ، وقد كان ينبغى أن يكون للأخلاق الشأن الأول وأن تحتل منزلة علم الفروع لأن الشريعة الاسلامية مقصدها الأسمى تربية الأخلاق وقد حصر صاحبها صلى الله عليه وسلم الغرض من بعثته فى تربية الأخلاق فقال إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق

وقد صار العلاج الآن معلوما وهو أنه ينبغى أن يعنى فى الأزهر بالأخلاق وأن يصبغ التعليم فيه بالصبغة الخلقية وأن يكون للأخلاق القيمة الأولى فيه فيكون جهل المرء بالشروط اللازمة لتطهير نفسه معيبا عند الأزهريين كجهله بشروط تطهير بدنه وهكذا

ومما ينبغى التنبه إليه أن قد يدخل علم الأخلاق فى التعليم ولا يؤثر الأثر المرغوب فيه لأنه لا يدرس كما يجب فيدرس مثلا لتلاميذ السنة الأولى من القسم الابتدائى عدة تعاريف للخلق . العدة والفضيلة والرذيلة والكرم والشجاعة الخ مما لا يؤثر فيهم ولا يعدل من أخلاقهم وإنما الواجب أن يقدم لتلاميذ القسم الابتدائى سير الأبطال والعظماء ورجال الفضيلة فتفيدهم الحكاية الواحدة مالا يفيدهم سفر مملوء بالتعاريف والاصطلاحات . ويجب أيضا أن يعنى الأزهر بالاخلاق العملية ويستعير ما يناسب من أنظمة الصوفية فى تطهير النفس من الرذائل وتحليتها بالفضائل بالمرانة والتعود والصبر

ويجب ألا يترك التلاميذ فوضى لا تراقب أخلاقهم وسيرتهم ، بل ينبغى أن تراقب أخلاقهم وسيرهم ويظر للتلميذ الفاضل على أنه عنوان فخر للأزهر ، وللتلميذ الشرير على أنه عار على الأزهر ويدخل فى روع كل تلميذ أن الرذيلة سبب الحرمان من دروس الأزهر وبالجملة يجب ان يعتقد الأزهريون إعتقادا جازما لا يحتمل النقيض كما يقولون يظهر على أعمالهم ويسيطر على تصرفاتهم ما قاله صلى الله عليه وسلم وأيده علم الاجتماع ذهب حسن الخلق بخيرى الدنيا والآخرة

— ٥ —

يشاهد فى الأزهر عدم الشره فى العلم فان الطلاب يتخلفون عن الدروس ويحضرون بعد فوات جزء منها ويغادرونها قبل تمامها ويلهو بعضهم بالحديث مع البعض الآخر أو قراءة الجرائد ولا يستغلون بالعلم رغبة فيه ولكن للنجاح فى الامتحان.

ولقد عجزت الأنظمة والمراقبون والعقوبات أن تؤدى ما كان يؤديه الشغف بالعلم فى الماضى القريب من الحرص على الدروس والانصات اليها وعدم التخلف عنها والاشتغال بشىء آخر خلافها .

وأما العلماء فكان ينتظر أن يكون إنتاجهم فى العلم كثيرا ، فنرى منهم من يعرض علوم الأولين فى ثوب قشيب يناسب روح العصر ، ومنهم من يناقش النظريات السالفة ويأتى بخير منها ، ومنهم من يصد الهجمات الموجهة للأسلام والسلف الصالح الخ ولكن مع الأسف لم نجد ذلك منهم كما يجب .

وأن المرء ليعجب إذا نظر إلى منتجات الماضين ورأى للواحد منهم المآت من الكتب فى الفنون المختلفة . وربما كان فيها الكتاب ذو العشرات من الاجزاء . هذا ابن جرير الطبرى له فى تفسير القرآن ثلاثون مجلدا. وفى التاريخ اثنا عشر مجلدا عدا كتبه فى الفقه والشرعيات وكلها كتب تحتاج إلى عناء ونصب

وقوة حفظ لأنه اعتمد فيها على الرواية ذات الاسانيد وهذا الأمام محمد بن ادريس الشافعى له كتاب الأم فى الفقه سبعة مجلدات عدا كتبه الأخرى

وهذان ابن القيم وابن تيمية لهما من الكتب فى الفنون المختلفة ما ينيف على مآت المجلدات .

وإن المرء ليزداد عجبه حين يقرأ الكتاب لسيبويه ويرى فيه علم الخليل بن أحمد فيعجب لهذا الاستقصاء فى استقراء كلام العرب . ولهذا العمق فى البحث . وهذه القوة فى الاستنتاج .

وكذلك إذا قرأ بعض مؤلفات ارسطو فى العلوم المختلفة كالمنطق والأخلاق

ليت شعرى ما الذى حفز السابقين إلى الابتكار والتصنيف. وشحذ هممهم إلى التأليف . وقعد بهمم علماء العصر عن مجاراتهم فى هذا المضمار ؟

السبب فى ذلك هو تغلب المعنويات على علماء العصور السالفة . وتغلب الماديات على معاهد التعليم فى هذا العصر .

لقد كان الاولون قوما أحبوا العلم ورأوا فيه لذتهم وسعادتهم فآثروه على الولد والمال ومتع الحياة. فلم يكن ذوو العروش والتيجان بأسعد حظا من أفلاطون وأرسطو فى توليد المعانى وابتكار العلوم ولا بأسعد من الخليل حين ابتكر علم العروض والنحو والصرف وكانوا قوما زاد إيمانهم وقوى يقينهم فالتمسوا رضوان الله بخدمة علوم الدين . ونفع المؤمنين وكانوا قوما يحبون أن يكون لهم لسان صدق فى الآخرين فعملوا ما يوجب لهم الذكر الحسن والثناء الباقى

أما الأزهر فى هذا العصر فقد دخلته المادية التى أفسدت كل شىء فى هذا الجيل .

فسد هذا الزمن وتحولت أنظار الناس جميعا إلى المال . وظنوا أن سعادة

المرء بقدر مافى خزانته من مال وبقدر مايملك من عقار وضياع .وأولوا احترامهم للغنى وضنوا به على العالمين العاملين . فتطلب الناس السعادة والكرامة من طريق المال .وأغفلوا كل مناحى الحياة الأخرى التى توجب سعادة تقصر عنها سعادة المال

لقد قلت المعنويات والروحانيات من العالم فقلت سعادتهم . وكثر شقاؤهم .

فيجب أن تعود للأزهر روحانيته . ويجب أن يعلم الأزهريون أن السعادة فى داخل النفس لا فى المال والضياع وأنه ربما كان الأجير فى المزرعة أسعد من رب المزرعة . وربما ملأت السعادة جوانب كوخ صغير فأنارته وملأ الشقاء قصرا منيفا فأظلم .

إن لذة العالم ببحثه والمبتكر بابتكاره والعابد بعبادته والفاضل بفضائله . لذائذ لا يصل اليها الأغنياء بذهبهم ولا ذوو الجاه بجاههم ولا الملوك بملكهم وسلطانهم ولذلك قال بعض العباد .

(لو يعلم الملوك ما نحن فيه من لذة لجالدونا عليها بالسيوف)

يجب أن يعلموا أن الذين تتردد أسماؤهم الآن على الألسن وترن فى الآذان وتنحنى لهم الرءوس عظمة وإكبارا وتخفق لذكرهم القلوب محبة وإجلالا، وأن الذين أنقذوا أممهم من الهمجية وصعدوا بها إلى سلم المدنية وأن المصلحين الاجتماعيين وأن الذين أقاموا الأديان وشيدوا صروح المدنيات ووضعوا فى الأرض بذور الخير والبركة كانوا يلبسون المسوح والمرقعات من الثياب ويأكلون من خشن الطعام وكانوا يمكثون ليالى على الطوى ويربطون على بطونهم من الجوع

يجب أن يعلموا أن الفقر ليس بعار وأن الغنى ليس هو المطلب الاسنى فى الحياة وإذا كانت أممهم لا تؤمن بذلك فيجب عليهم أن تؤمن بذلك .

وسبيله أن يؤمنوا به أولا فاذا اقتنعوا به سهل عليهم أن يقنعوا غيرهم من الناس

يجب أن يعلموا أن طالب العلم لا يحرز الخير المادى والمعنوى إلا بحب المعنويات وطلبها — أما حب الماديات فهو مفسد لطالب العلم ويجعله لامادة ينال ولا علما يكتسب .

والسبيل إلى ذلك دراسة كتب وتاريخ الصوفية والفلاسفة والارتياض بمزاولة المعنويات من بحث وابتكار ونفع وإرشاد واستقامة وتهذيب للنفس . وخلق جو فى الازهر لا يكبر إلا الفضيلة .

إن الازهر إذا وصل إلى ذلك فستكون له رسالة عامة يؤديها إلى الانسانية جميعها

إن الانسانية قد طغت عليها المادة . وأقفرت قلوب الناس من المعنويات وخلت من الله ومن الفضائل فساروا فى همجية وبربرية . واذا بقوا على ذلك فسيمحق بعضهم بعضا : ويصيب المدنية الدمار والفناء .

ولن ينقذ البشرية مما هى فيه إلا رجوعها إلى المعنويات وعمارة قلبها باليقين . والازهر إذا رجع إلى صوفيته وعنى بالمعنويات . وتفهم الاسلام على حقه بشر العالم بذلك فرجع إلى الخير وانقذ العالم من هذه الهوة التى ينحدر اليها .

— ٦ —

أخذت ثقة الامة المصرية فى الازهر تضعف شيئا فشيئا .

والعلة فى ذلك الدعاية السيئة التى تقوم بها طوائف تريد أن تحتل مكانة الازهر وتغنى غناءه .

ثانيها قلة الانتاج العلمى فأن الناس حين لا يرون ما يروع تخمد فى نفوسهم الحماسة له . وهذا الانتاج على قلته لا يحسن الازهر لاعلان عنه ولا يشجعه أهله لانهم يرون أن ارتفاع شخص منهم اغتصاب لهم : وأنهم كانوا أولى بالارتفاع منه فيجب أن يدرسوا فن الحياة وأن يعلموا أن ارتفاع شخص منهم ارتفاع

للازهر . وأن الاشخاص فانية والازهر هو الباقى . وأنه ستفنى الاشخاص وسيبقى الازهر وأن الوجود يتسع للكثير . وأن الجمهور يستطيع أن يرى على المسرح عدة من اللاعبين .

ثالثها — تسرب الاعتقاد إلى الامة بان الازهريين موظفون فحسب — يشتغلون لاشخاصهم لا للنفع العام .

إن الازهر لا يؤدى رسالته إلا إذا وثقت الامة به ولن تثق الامة به إلا إذا رأت منه بعدا عن المادية ، وصرامة فى الحق ، وجرأة على إبداء الرأى وتحملا للاذى فى سبيل حماية الدين ، بهذا وبهذا وحده تضع الامة فيه ثقتها ، فيحملها على الاخلاق الفاضله والشيم العالية ، ويسير بها قدما إلى العزة القعساء والشرف الرفيع .

— ٧ —

ضعف الخيال ، وفقر النفس والشعور ، ونضوب الحيوية ، وقصر الامل ، وخمود النشاط ، وجمود الحس ، وتقييد العقل ، هذه صفات ربما وجدت فى الازهر — وهذه أمور مقعدة مثبطة ، بها يخلد الناس إلى الارض ، ولا يعرجون درجة واحدة إلى السماء . وما العمل على اصلاح المعوج من الناس ، وإقامة المناآد . وما الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة صروح الاديان والحضارة ، وما الابتكار والاختراع إلا وليد قوة الخيال ، وفيض الحيوية وغنى النفس والشعور ، وتوقد شعله النشاط ، العبقرية ، حسن الرجاء فى إصلاح الناس ، لان الحقيقة لا تطير إلا على جناحين من الامل والخيال ، والمرء لا يفيض الحياة على غيره إلا لغزارة الحيوية فيه .

والسبب فى وجود الصفات التى ذكرناها فى الأزهر أن الأزهر لم يعن

بتربية الخيال ، والموازنة بين ملكاته ، ففيه بحوث فى الدور والتسلسل ، وبحوث جدلية وكلامية . مما ينمى قوة الجدل ، ولكن ليس فيه ما ينمى الخيال والأمل ، من فن وشعر وقصص ، وكان يجب أن يعنى بتربية الخيال لأن الله لم يخلقه عبثا .

والسبيل إلى تربية الخيال والأمل ، وتوفير الشعور والحيوية ، قراءة سير الأنبياء والعظماء والمخترعين ، وحشد الذهن بجملة من أخبار الأبطال والمصلحين والمضحين بأنفسهم فى سبيل الانسانية والكشف العلمى والاطلاع الغزير

— ٨ —

يلاحظ أن مادة المعانى عند الأزهريين ليست غزيرة فليست عندهم المعانى التى يحتاج إليها من يقف موقف الخطابة فى المسائل المختلفة ، ومن يكتب فى موضوع من الموضوعات المتنوعة .

وعذرهم فى ذلك أنهم إنما ينفقون مما اكتسبوا . وهم إنما يدرسون علوما آلية كالنحو والصرف ، وأصول الفقه ، وعلم الفروع والمنطق الخ ، وهذه كلها لا تعطى مواد المعانى التى يحتاج إليها الكاتب والخطيب

والذى يسد هذا النقص أن تقرر عليهم دراسة كتب من الكتب التى عنيت بالمعانى المختلفة ، وأوردت كثيرا منها ، فتكون مادة للطلاب ينفقون منها ويستولدونها ، وخير ما نشير به فى ذلك كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة ، والبيان والتبيين للجاحظ ، والكامل للمبرد ومقدمة ابن خلدون ، والاحياء للغزالى ، ودواوين الشعراء ، ورسائل البلغاء وقد كان المتقدمون يعنون بهذه الدراسات ، فكثيرا ما يقال فى كتب التراجم ، وقرأ عليه ديوان المتنبي مثلا أو الحماسة .

ويحسن أن تقرر عليهم كتب مختلفة يطالعونها فى المسامحات ، ويكافأ من أدى فيها امتحانا بنجاح ، كما يحسن أن تنقلب الدراسة للحديث والقرآن إلى دراسة

معنوية ،فينتقل البحث من دائرة الألفاظ وتطبيق قواعد النحو والصرف والبلاغة عليها ، إلى البحث فى المعانى ومعرفة سنن الله فى الخلق والاجتماع وبالجملة يدرس القرآن من الجهة التى أنزل لأجلها ، من حيث هو هدى للمتقين ،لا من حيث هو تمرين للمعربين .

وإنى لا أعجب كيف تكون الدراسة لتكوين الداعين والمرشدين ويعنى بالآلات ولا يعنى بالمقاصد .

— ٩ —

إن الأزهر مقبل من إنجاب العظماء الذين يعترف بعظمتهم ويملئون الدنيا آثارا صالحة ويفرضون آراءهم وأفكارهم على الناس،ولولا أن أنجب أفرادا معدودين كالأستاذ الأمام لعد عقيما

وقد فكرت فى هذا الأمر طويلا، فهدانى البحث إلى أن من البيئات بيئات تساعد على وجود العظماء ، ومنها بيئات تقتل العظماء وقد أدرك ذلك الامام الشافعى حين رأى الليث بن سعد فقال : « إن الليث أعلم من مالك ولكن أصحابه لم يقوموا به » .

وأخص صفات البيئات التى تقتل العظماء التقليد والحسد وفقدان الشعور بالجمال ، فان التقليد يمنعهم من إدراك عظمة العظيم بأنفسهم ومن الاعتراف بعظمته إلا تقليدا ، الحسد يحول بين المرء بين الاقرار للعبقرى بالعبقرية ، عدم الشعور بالجمال المعنوى يجعل المرء فى اد العظيم فى اد .

لم ينل الاستاذ الامام عظمته من الازهر . . إنما اعترفت له البيئات الاخرى بالعظمة ، ثم دخلت الازهر فاتحة فاضطر الازهر إلى أن يقر بها .

و بدهى : إذا أريد أن يكون الازهر بيئة صالحة لانجاب العظماء أنه يجب

School of Oriental Studies
of
The American University at Cairo

أن تحرر العقول فيه ، تفك من أسر التقليد ، ينقى من رذائل الاخلاق ، منها الحسد ، أن يربى فيه ملكة الشعور بالجمال .

يشاهد أن المتخرجين فى الازهر كسائر أبناء المدارس المصرية يعتمدون على وظائف الدولة ، وظائف الدولة تتسع إلا للقليل ، فان فاتتهم لم يعملوا عملا وأضاعوا عمرهم سدى فى الانتظار .

هذه علة العلل فى مصر مرجعها إلى النظمة الاجتماعية ، إلى التربية المدرسية .

نعيم الموظفين ورفاهيتهم ، واجلال الناس لهم ، لها دخل كبير فى هذه النشأة الاتكالية .

وذلك النظام المدرسى الذى يعد من التلاميذ موظفين ويصنعهم متشابهين ككتاب واحد ، اتحد معناه وتعددت نسخه ، عامل مهم أيضا فى تلك النشأة الاتكالية ، والرأى العام الذى يكبر الوظيفة من العوامل أيضا ، فأينما توجه التلميذ ، فى البيت ، أو فى المدرسة ، أو فى المجتمعات العامة ، لا يجد إلا توجيها للوظيفة .

يجب أن تترك الطريقة التى تصبغ الطلاب جميعا بصبغة واحدة ، ويستعاض عنها بالطريقة التى تخالف بينهم وتجعل كل واحد له غرض ومرمى فى الحياة يتفق مع استعداده وميوله ، وتدرس لهم تاريخ الجمعيات التبشيرية ، وكيف انشئت ، وكيف تمكنت من العيش فى بلدان الشرق من حيث تنفع نفسها ودينها ولغتها ؟ ليتشبهوا بهم ، ويتخذوا من تاريخهم أسسا لحياتهم المستقبلة .

يجب أن تدرس لهم أعمال المحبين لآثار السلف بالبحث عن كتبهم وطبعها بعد العناية بتصحيحها ، ليكون منهم الطابعون والناشرون .

يجب أن يدرس لهم كيف ينقدون ويبتكرون ؟ ليكون منهم مبتكرون فى العلوم ، ويجب ان نحتفظ لهم بعقولهم وإرادتهم ، ليفكر كل واحد بعقله ، ويريد بارادته ، يجب أن يغرس فى نفوس التلاميذ أن عدد الوظائف محدود ومتناه ، وعدد المخرجين غير محدود ولا متناه ، ومن المستحيل أن يسع المحدود المتناهى ماليس محدودا ولا متناهيا ، وأن الوظائف لا تتسع إلا لخمسة فى المائة ، ومن الحمق أن يقامر المرء بحياته والخسارة مقدرة بخمسة وتسعين فى المائة .

إنه يجب أن يعتمد المرء على نفسه ، فان الناس لا يقدرون أن يفيدوه بقدر ما يفيد هو نفسه .

إنه من الحمق أن يترك المرء السبل الطبيعية الواسعة التى نشاهدها تتسع لملايين الأجانب بين ظهرانينا ، وينتظر هذا الطريق غير الطبيعى مع ملايين المنتظرين.

إن الحياة جهاد لا ينجح فيها إلا الأقوياء خلقا والأقوياء علما .

— ١١ —

بديهى أن هذه النهضة العظيمة التى نؤملها للأزهر لا يقوم بها إلا المدرسون القادرون ، ورجال الأدارة القادرون ، فيكونون عالمين بقيمة الأخلاق فى الحياة وقادرين على توجيه الطلاب إليها ، ويكونون أقوياء فى مادتهم ، وذوى ضمائر حية تأبى عليهم أن يروا معوجا ولا يقوموه ، فى علم تلامذتهم وأخلاقهم . وإذا ظفر الأزهر بعدد من هؤلاء فقد ظفر بالنجاح فى مهمته

فان المدرس القدير ينهض بتلاميذه إلى اعلى الدرجات ، ويحسبنا أن نذكر أن السيد جمال الدين الأفغانى نفخ فى تلاميذه روحا منه فاستيقظوا وأيقظوا أممهم ، وهذه النار القدسية التى تتأجج فى الشرق هو الذى أذكاها

والسبيل إلى إيجاد المدرس القدير ، ورجل الادارة القدير ، اليقظة التامة ،

والتعهد الصادق ، واختيار العمال ذوى الكفايات ، واختصاصهم بالخيرات والكرامات ، فيعلم المدرسون أن لا سبيل إلى الخير والكرامة إلا العلم الناضج ، والخلق المتين ، والجد فى العمل ، ونفع الناس . بذلك يتسابقون إلى الخيرات من هذه الطرق الشريفة ، فيستفيد المعلم والتلاميذ من ورء هذه المنافسة الخير الكثير .

أما توزيع الخيرات والكرامات لاعتبارات أخرى غير العلم والخلق ، والجد والنفع ، فيجعلهم يتسابقون فى ميدان هذه الاعتبارات ، ولا يبالون بعلم ، ولا بخلق ولا بنفع .

— ١٢ —

فى الأزهر صورية فى الأعمال ففيه صور الأشياء دون حقائقها ، وقشورها دون لبابها ، فيه صور للامتحان الشفهى والتحريرى ، دون حقيقة الامتحان ، فالامتحان الشفهى ضعفت قيمته عند الممتحنين ، وصار فى نفوسهم أن الخير ألا يسقط فيه الطالب ، بل يوكل أمره إلى التحريرى ، والامتحان التحريرى يعمل بطريقة تمتحن الحافظة ، دون الفاهمة ، فلا يسأل فى التطبيق إلا قليلا ، وإذا سئل فى التطبيق جىء بالأمثلة من الكتاب المقرو ، فيكون التطبيق أيضا امتحانا للحافظة ، والطلبة إنما يشتغلون للامتحان ، فاذا علموا أن هذا المجهود الضئيل من حفظ رسوم القواعد ، دون تفهمها . كاف فى الامتحان لم يتجاوزوا ماوراءه

والعلة فى هذه الصورية أن فى المعاهد تنافسا ، فكل يريد أن يضرب الرقم القياسى فى حسن النتيجة ، والطريق السهلة إلى ذلك هذه الصورية . والدواء أن تلغى الصورية . وسبيل ذلك أن يعلن صاحب الفضيلة شيخ الجامع الأزهر إلى المدرسين والقائمين على شؤون المعاهد إعلانا صريحا لا يدع مجالا للشك أنه يحتقر

الصورية وأن خير المعاهد وكرامتها لا يكونان إلا لمن يعنون بالحقائق ، وأن إنجاح من لا يستحق النجاح يحتوى على جريمتين ، جريمة الكذب ، وجريمة شهادة الزور ، وتلحقه جريمة ثالثة وهى توسيد الأمر إلى غير أهله إذا قدر لهذا الذى نجح دون استحقاق أن يلى شأنا من شؤون الدولة ، هذا وما تقدم من انتقاء العمال معين على إزالة الصورية

— ١٣ —

يظهر أن الأزهر يسير مغمضا عينيه عن تطورات الحياة ، غافلا عما يجد فيها من شئون ، فلذلك لا يقدر هذه التطورات ، ولا يعطيها ما يجب لها ، وكان ينبغى أن يرقب تطورات الحوادث ، ويربى أبناءه ليقدروا على السير فى هذا التطور ، ويعدهم له أحسن إعداد ، فيجب أن يعلم مثلا أن العلم كان أكثر من يعنى به الطبقة العليا والوسطى ، فكان مصبوغا بصبغتهم ، وموافقاً لمزاجهم .

أما الآن فقد صار العلم جمهوريا ، يقصد به قصد الجماهير ، فينبغى أن يصبغ فصبغة الجماهير ، ويجعل موافقا لمزاجهم النفسى ، ولكن الأزهر بقى على ارستقراطيته فى العلم ، وسأمثل .

لما كان العلم موجها نحو الطبقة العليا والوسطى صبغ علم الكلام بهذه الصبغة بهو جدلى ، يناسب من ارتقوا عن درجة العامة ، ولا يناسب الجماهير بحال . فما للجماهير قدرة على إساغة الدور والتسلسل ، والجوهر العرض ، وما إلى ذلك من الأدلة الجدلية المبثوثة فى علم الكلام ، وقد كان هذا سائغاً فى العصور التى وضع فيها لما ذكرناه ، أما الآن وقد سيطرت الجماهير على مصاير الأمور ، فلم يسغ عندها هذا النحو من العلم ، ولو علم الأزهر بهذا التطور لوجه علم الكلام نحو الجماهير ، وصبغه بصبغتهم ، فاستعمل الخطابة والموعظة الحسنة مما يؤثر فى نفوسهم

ويوافق مزاجهم النفسى ، ويجب أن يستعمل الحكمة فى خطابه ، فيخاطب الناس على قدر عقولهم ، فيعلم أن من الناس من يفيدهم البرهان ، وهم العلماء المنتهون ، ومنهم من لا يفيده إلا الخطابة ، وهم الجمهور ، ومنهم بين ذلك . قد ارتقوا عن العامة ولم يصلوا إلى الخاصة فلا يفيدهم إلا الجدل فيعرف هذه الطبقات ويخاطب كل طبقة بما يوافقها ولا يخاطب هذه بخطاب تلك فلكل مقام مقال .

ومن التطورات أيضاً أن الناس أصبحوا يعنون بالجميل أكثر مما يعنون بالنافع فمن الواجب أن يجعل الأزهر علمه النافع جميلا ليفوز برضا الناس واقبالهم واعجابهم واستفادتهم

ولن يصل إلى ذلك إلا بالأسلوب الحكيم اللفظ الجزل وحسن التصوير وقوة البيان ـ ان من البيان لسحرا ـ

وإن البيان نفسه قد تطور فبعد أن كان محسنات بديعة وغرابا فى اللغة أصبح سهولة فى التعبير وقوة فى الخيال وفيضا فى العاطفة .

وينبغى أن يعلم الأزهر أنه لا تقوم عقيدة دينية أو اجتماعية ولا مذهب سياسى إلا بالدعوة إليه وإن أساليب الدعوة قد تطورت فأصبح أنداها صوتا وأعظمها تأثيراً وأقدرها على توجيه الجماهير الصحافة . فيجب أن يعلم طائفة أساليب الصحافة وينشىء صحافة يجد فيها الجمهور ما يحتاجون إليه من صور الحياة وفى ضمن ذلك العبر والأخلاق ، التوجيه إلى الدين الصحيح وأن يكون له فى كبريات الصحف محررون يدعون الناس إلى الخير والفضيلة . كما ينبغى أن يعلم أن للنساء أثراً كبيراً فى الاجتماع فهن فوق انهن نصف المجموع مربيات لأمهات الغد ورجال المستقبل وموجهات للرجال فى الحياة فكأنهن الارادة المستترة كأن الرجال القدرة المنفذة فينبغى أن يعنى بتربيتهن على الدين والخير والفضيلة والسبل إلى ذلك

تمهدة ليس هذا موضع تفصيلها

- ١٤ -

يخيل إلى أن فرق مابين الرئيس الصالح والرئيس الطالح ، أن الأول يعمل لمرءوسيه ، والثانى يعمل لنفسه ، وهذا فرق لا يكذبك ، ولا يخدعك . تجد الأول يتوخى بعمله مصلحة مرءوسيه ، فان كان رئيس مدرسة ، أو معهد علمى ، عمل كل ماينمى معارف التلاميذ ، ويثبت أخلاقهم ولا ينظر فى كل مايعمله إلا إليهم ، أما الثانى فلا يعنيه أمر أخلاقهم ، ولا معارفهم ، وإنما تعنيه نفسه ، فهو يضحى بالحق والنظام والعلم والأخلاق فى سبيل نفسه بينما ترى الأول يجد فى التعليم وفى المحافظة على النظام ، وفى أن يؤدى كل واجبه ، وفى أن يكون الامتحان ميزان عدل - ترى الثانى يهمل فى التعليم وفى النظام ، فى تأدية الواجب وفى الامتحان

يرى انه إذا شدد على المدرسين فى تأدية الواجب احفظ المدرسين عليه . وإذا امتحن بالعدل فلا ينجح إلا من يستحق ، ولا يسقط إلا من يستحق ، احفظ الطلاب عليه ، وإذا شدد فى حفظ النظام ومراعاة القانون ، احفظ هؤلاء وهؤلاء فيهمل فى كل ذلك ليرضوا عنه .

يرى الأول أنه يجب أن يرضى الحق والنظام والعدل ، وإذا رضيت عنه فلا يبالى أن يسخط عليه ماعداها ، بل انه يرى أن الطلاب والمدرسين لا يكرهونه لتشبثه بالحق والقانون إلا لنقص فى عقولهم ، وعجز عن إدراك مصالحهم ولا يحبون الآخر إلا لهذا النقص ، وهذا العجز ، ولن يكون ذلك إلا فى أيام الاختلال والثورات ، فاذا تكشفت الأمور ظهر أن الأول صديق أمين ، والثانى عدو مبين .

إن الطالب يحب من يغش فى امتحانه لمصلحة وقتية زائلة ، ولو علم أنه بذلك

يخرجه إلى فرق فوق مستواه ، وإلى صفوف لم يستعد لها ، وأن علم مايستقبل موقوف على علم ماستدبر ، وأنه بذلك يحكم عليه بالجهل المطبق ، والخيبة التامة فيما يستقبل من حياة ، لكرهه أعظم الكره ، ولعلم أنه العدو الخائن ، وأن الأول هو الصديق الناصح . أما المدرس يحب من يعينه على الاهمال فى واجبه ، ويبغض من يحمله على أدائه ، والحرص عليه ، لقصور فى عقله ، فاذا علم أن الأول يعينه على إضعاف معلوماته ، وعلى الاستمرار فى الجهل ، وعلى تعويده الاهمال ، وعلى إضعاف معهده ، وأن الثانى يعين على عكس ذلك على إنماء معلوماته ، وعلى تعويده القيام بالواجب ، وعلى رقى معهده ، أصفى حبه لمن يستحقه ، ووضع بغضه فيمن يستحقه .

إن الأول أمين بعيد النظر يسعى فى ترقية مستوى معهده ومن يعيش معهم. ويعلم أنه سيلاقى فى ذلك عنتا وضرا ، ولكن عقبى ذلك خير لطائفته ، وللأمة ، وله أيضا ولكن الثانى يعمل على الاستفادة من غفلة أمته . وطائفته ، ويعمل مايحلو لهم فى الحال . ولا يعمل على ترقية مستواهم ونقلهم من حال إلى أرفع منها وهو لا يريد إلا أن يعيش مستريحا هانئا يحظى برضا العامة والاغرار . وهو ضيق النظر . فلا يرى أبدا من أنفه . ولا يظن أن يطلع مرءوسوه على جهله وختله فينقلب حبهم بغضاً .

إذا كان ذلك كذلك . فقد تغير المقياس فى أيدينا ، فهل نستطيع أن نغيره ونقول : إن الرئيس الصالح يعمل لخير مرءوسيه وخير أمته وخيره ، وإن الرئيس الفاسد لا يعمل لخيره . ولا لخير مرءوسيه ، ولا لخير أمته .

لقد طال الكلام وكثرت المقدمات ، فماذا أريد أن أقول ، أريد أن أقول إنه يجب أن يكون حظ الأزهر من الرئيس الأول كثيراً ، وحظه من الرئيس

الثانى قليلا . أو ألا يكون له حظ منه البتة إن أمكن

— ١٥ —

الأزهر محب للاصلاح كسكل الطبقات والجماعات ، ولكنه يؤمن بالقوانين ايمانا قويا. ويظن أن عندها ما يريد من اصلاح وليس أدعى للخطأ من ظن كهذا . إن السر فى الرجال الذين يقومون على تنفيذ القانون ، لا على القانون ، إن القانون آلة صماء لا تعى ولا تعرف . أما الرجال فهم الأحياء الواعون .

إن خير القوانين بيد أفراد لا غناء فيهم كشر القوانين ، وإن شر القوانين بيد أفراد فيهم غناء . كخير القوانين ، إن القانون إذا كان يد خرقاء انحرفت به ، وإذا انحرفت لا تقدر أن تسير على الجادة أما اليد الصناع فانها لا تنحرف ، وإذا انحرفت عادت إلى الجادة

آمن الأزهر بالقوانين فأخذ ينقدها يغير ويبدل فيها ، ويبحث عن خير القوانين ليحلها محل القانون الفاسد ، ولم يعمل مثل ذلك فى الرجال ، فالرجال الذين يتولون الأعمال لا ينقدون ولا يغيرون ولا يبدلون فالتبعة ليست عليهم إنما التبعة على القوانين . ومالنا نبحث عن الرجال ذوى الكفاية والخلق لنوليهم الأعمال مادمنا نجد القوانين الصالحة ، إن خير الرجال وشرهم سواء مادام القانون صالحا .

هذا ما نعتقده أو لعلنا نظن ننا نعتقده ابرر أعمالنا فى اختيار غير الأكفياء وتفضيلهم على الأكفياء

إننا نختار رجالا فنوليهم أعمالا لا يحسنونها ، ونسترعى أقواما على أقوام ولو طلب منا أن نسترعيهم على قطيع من الغنم أو ذود من الابل لما أمناهم على ذلك ولرأيناهم أقل من هذه الرعاية ، فكيف نسترعيهم على قوم عقلاء . وبأيديهم مصالح العباد والبلاد ؟

إننا ماتأخرنا هذا التأخر إلا لعدم اختيار العمال ، إننا نعيش فى القرن العشرين ونحكم بعقول القرون الخالية والأزمنة الغابرة .

أكتب على هذه الأمة أن تستفيد الأمم من رجالها ، وأصحاب العلم فيها ، ولا تستفيد هى من خدامها المخلصين ، ورجال العلم العاملين ؟

أكتب على العلماء فيها أن يشقوا ويتعبوا ، وأن ينبشوا الدفاتر والمكاتب حتى يظفروا بخير ما أنتجته الأجيال ، ثم يرجعوا إلى نفوسهم ، فيعكفوا عليها باحثين ، مستنتجين قائسين . حتى يصلوا إلى ماند عن القدماء ، وغاب عن العلماء فيكملوا ما نقص . ويصلحوا مافسد ، ويستبدلوا بالباطل حقاً وبالزائف خالصاً ، ثم يقدموا ذلك لأمتهم طعاماً دسماً شهياً فتصدف عنه أحوج ماتكون إليه ، وأنفع مايكون لها ؟

أكتب على هذه الأمة أن تترك الأقوياء الأمناء . فلا توليهم عملا ولا تستفيد منهم — وإن الواحد منهم أجدى عليها من قطر السماء ومن بركات الأرض — وتذهب إلى من ليسوا كذلك فيفسدوا بقدر ما يصلح الأولون ، ويؤخروا بقدر مايقدم الأولون ؟ خير للأمة أن تبحث عن الأقوياء الأمناء بمصباح ديوجين . فانهم لا يعلنون عن أنفسهم ، ولا يتمسحون بالأعتاب ، ولا يتزلفون لذوى السلطان لينالوا حظوة أو جاها

إن المعلم الصالح ورئيس المدرسة الصالح أجدى على الأمة من الجحافل والحصون . إنه يخرج لها جيلا مهذب الخلق مستكمل العقل ، معتادا للنظام محترما للقانون . وبذلك يسعد ويسعد الناس معه .

أما المعلم الفاسد ومدير المدرسة الفاسد ، فهما أعظم شؤما على الأمة من القحط الشديد والوباء المبيد ، لأنهما يخرجان شبابا لم تهذب أخلاقهم ، ولم

تستحكم عقولهم ولم يعتادوا النظام ولا احترام القانون . وبذلك يشقون ويشقى الناس معهم .

لو كان عندنا فى النابغين كثرة لكنا إذا أهملنا ذاك وجدنا منه عوضا . أما هم قلة فيجب أن نفتش عليهم حتى نظفر بهم . وإذا ظفرنا بهم لم نضيعهم ولم نهملهم واحتفظنا بهم احتفاظ من يعلم أنهم أعظم قوة فى الوجود . إن الفضيلة متأبية . تعاف الموارد الوبيلة وتحتمل الظمأ . وهى تتوقف وتتمهل وتختار ، بينما الرذيلة لا تعاف شيئاً ولا تتوقف ولا تتخير . وهى بكدها وسرعتها وحركتها تغتصب الفضيلة حقرقها .

لا تدعوا الرذيلة تطارد الفضيلة ، ولا الجهل يطارد العلم .

إن السفينة التى يقودها ربان جاهل بالملاحة ونوتية جهلاء بها لهى سفينة ميئوس من نجاتها غارقة اليوم أو غداً .

— ١٦ —

لعل قائلا يقول : إنك فيما كتبت تريد المثل الأعلى الذى يجب أن يصل إليه الأزهر ، ولكن الرجل العملى يجب أن ينظر إلى الواقع . فيعلم أن الأزهر يجب أن يفكر فى أمره ليعيش كما تعيش سائر الطوائف . إنه قد دب فيه الفساد حتى فقد الحياة التى تحياها سائر الطوائف الدنيا . فالمفكر الآن يجب أن يعالجه ويأخذ بيده لينهض إلى الحياة العادية السهلة التى يستمتع بها الناس ولا يستمتع بها هو ؛ وإن الذى ينظر إلى المثل الأعلى ، ويطير فى جو الخيال ، يغفل عن الأمراض الواقعة . ويذهب يستمتع بتصورات وأحلام ليبلغ الكمال المنشود . ومثله فى ذلك مثل من يريد أن يعلم مريضاً مدنفا الرماية الفروسية وفنون الحرب . فيغفل عن مرضه الذى أقعده عن الحركة ، ويوجه همه فى الأسباب التى تجعله بطلا من الأبطال . ولن يبلغ من ذلك شيئاً حتى يبدأ فيداوى جسده من الأمراض والعلل

حتى يصير رجلا يتمتع بالصحة المعتادة لسائر الناس . ثم يعمل على تعليمه الفروسية وفنون الحرب .

كذلك من أراد العمل لخير الأزهر يجب أن يعيد اليه الصحة التى يستمتع بها الطوائف . فاذا فعل ذلك بحث بعد فيما يؤدى به إلى الكمال .

وإنى أقول لهذا القائل إننى شعرت بما شعرت به . ولم يفتنى ما تنبهت له . ولذلك كتبت فصولا بحثت فيها أمراض الأزهر ، والعلل التى أخرته . والأسباب التى يصح عليها . فاذا عادت إليه الصحة كانت الفصول السابقة مبينة لسبيل الكمال الذى ينشده له كل محب لمصر وللاسلام وللعالم الشرقى .

— ١٧ —

أن الأزهر عليل ، قد برحت به العلة ، ويحتاج إلى من يطب له . ويعرف أسباب مرضه ، ويصف الدواء الذى يكون منه شفاؤه .

لقد وقعت فيه فى هذه الأعوام الأخيرة احداث جسام تنفطر لها القلوب وتنشق لها الجيوب وتدل على انحلاله ، وتغلغل الفساد فيه .

لقد اضرب أبناؤه نصف العام الدراسى فى سنة ٤٣ — ٤٤ لا يتلقون فيه علما ، ولا ينتظمون فى درس ، واحدثوا الشغب والاضطراب ، وكان مما أحدثوه ان اعتدى بعضهم على بعض بالعصى والمدى ، واعتدى بعض الطلبة على بعض الأساتذة فضربوهم بالعصى ، وحاولوا الاعتداء على شيخ معهد فلما اعتصم منهم بحجرته حاولوا إحرقها عليه ، وكان منهم بعض التخريب لمعاهدهم ، وإيقاد النار فى بعض حجراتها — لقد عمتهم فتن كقطع الليل المظلم لا تنجلى منها غاشية حتى تغشى غاشية — لقد وجدت فيهم ضغائن واحن وعداوت وحزازات جعلتهم يكيدون بعضهم لبعض ، ويتهم بعضهم بعضا ، ويوقع بعضهم ببعض .

كل هذا كان فى الأزهر الذى هو مبعث العلم ومهبط الحكمة ، ومقر الدين والذى كان الظن بأبنائه أن يكونوا مثلا أعلى فى التواد ، التحاب والتراحم والتسامح ودقة النظام .

لقد كانت العلاقة بين الطالب وشيخه فى الأزهر علاقة روحية كانت عند الطالب حبا وإجلالا ، وعند الأستاذ حبا وحنانا ، كان الطالب ينظر إلى شيخه كأنما يرقب نجما فى السماء لا كائنا من سكان الارض وكان الاستاذ يراه أحد ابنائه ، وكان الطالب يرى أن الوالد مربى الجسد ، وان الاستاذ مربى لروح ، وشتان بين مربى الجسد ومربى الروح - لقد استحالت هذه العلاقة الى ماذكرنا بعضه .

الا إن المصيبة بمحنة الأزهر عظيمة ، وأعظم منها سكوت الأزهريين عليها فلا ينصح أحد بكلمة ، ولا يبدى أحد رأيا ، كأن الأمر لا يعنيهم .

أين ما أخذ الله على العلماء من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟ أين ما أخذ الله على المسلم من النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ؟

أين ما أخذ الله على من علم شيئا أن يبينه للناس ولا يكتمه ؟

إذا لم يهم الأزهر الازهريين فمن يهمهم ! اذا لم يطب الأزهريون لداء الازهر فمن يطب له ! اذا لم يلم الازهريون شعثهم ، ويرأبوا صدعهم ، ويسد واخللهم فمن يقوم لهم بذلك ؛ اذا لم تقم هذه الطائفة بالنصح فيما بينها فهل ينتظران تقوم به لغيرها . اذا لم نجد الصلاح فى رجال الدين فأين نجده !

اللهم أن تهلك هذه الطائفة فلن تعبد فى الارض !

ولعل بما أحاوله فى هذه الكلمة من تعرف أسباب الفساد فى الازهر وطرق علاجه أؤدى الواجب عن نفسى وعن الآخرين .

لعل أهم الاسباب لعلل الازهر عدم تنفيذ القوانين وعدم أخذ الامور بالحزم ، وتخلف الازهريين عن عصرهم فى فهم الحياة الجديدة .

١ ــ عدم تنفيذ القوانين :

فى الازهر قوانين ولكنها لا تنفذ وعقوبات ولكنها تهمل . فهو يعيش ولا عقوبات رادعة ويسير فى الحياة ولا قوانين مرعية .

يسىء المسىء ويجرم المجرم ، ويعتدى المعتدى ، ولا يؤخذ كل بجريرته ، وربما لايسأل عما فعل . ومن سنة الوجود الا يعيش مجتمع بدون رادع وبدون عقوبة لما يزع الله بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن .

وإذا لم يؤخذ المعتدى بعقوبة تروعه وتخيف أمثاله لم ينته المعتدى عن عدوانه وانضم اليه امثال له فى العدوان .

اعتدى معتدون على مبانى معاهدهم ولم يؤآخذوا بما فعلوا . واعتدى معتدون على أساتذتهم ولم يؤاخذ ا بما فعلوا . اعتدى معتدون أمام أولى الأمر فى الازهر بل اعتدى على أولى الامر أنفسهم ولم يؤاخذ ا بما فعلوا .

أيها الازهريون لا يقل أحدكم أن الاعتداء ليس على فلا أهتم به فاليوم ليس عليه ، وغدا عليه ، واليوم هو خارج المعمعة ، غدا فيها

أيها الازهريون لقد ضعفتم وتخاذلتم أمام الطلاب حتى كاد ينقلب الامر فيصبح الحاكم محكوما والمحكوم حاكما .

يجب أن يكون مفهوما لكل أحد أن قوانين لازهر جزء من قوانين الدولة ، وانها سنت للمصلحة وفى عدم تنفيذها اخلال بهذه المصلحة .

كذلك يجب أن يكون معلوما لكل أحد أن السلطة التنفيذية فى الازهر جزء من السلطة التنفيذية العامة فى مصر ، فأى اهانة تلحقها فهى لاحقة للسلطة

التنفيذية العامة وهما متضامنتان أشد التضامن ومتعاونتان أعظم التعاون ، ويتبع هذا نتائج أولاها أن الحكومة يجب أن تسأل أولى الامر فى الازهر عن سكوتهم عما لحقهم من اهانة ولماذا سكتوا عليها ولماذا لم ينفذوا القانون فيها ! وان تعلمهم أن الحق ليس لهم انما هو من حق المصلحة العامة ، لا يجوز السكوت عليه ولا التقاضى ، ثانيا أنه يجب على أولى الامر فى الازهر أن يطالبوا الحكومة بصيانتهم من كل أذى يلحقهم وأن يطالبوها بأن تعاونهم بجنودها ورجال الضبط فيها وان يجعلوا ذلك الشرط الاساسى لقبول مراكزهم والبقاء فيها .

يجب أن يكون معلوما لكل أحد أنه ما من حكومة تحترم نفسها تؤيد الفوضى وتشجع على عدم النظام وتحمى المجرمين ، أن الحكومة وجدت لحفظ النظام فلا تخل به ، وللقضاء على الفوضى ، فلا تؤيدها . ولمطاردة المجرمين ، فلا تحميهم ، وان ذلك ربما كان فى عصور الجهل والظلام أما فى هذا العصر عصر العلم والنور فلن يكون ذلك

إذا آمن بذلك أولو الامر فى الازهر طاردوا المجرمين ايا كانوا ولم يدعوهم يفلتون من العقاب وحملوهم جرائرهم ولم يسمعوا كاذيبهم فى زعمهم ان هذه الجهة يرضيها هذا ، وتلك يرضيها ذاك فما من أحد كما قلنا يرضيه الفوضى والاخلال بالنظام

لقد سمعت العقلاء من الطلاب يقولون أحكمونا لصالحنا فقد سئمنا الفوضى واضرت بنا وعلمنا أن لا خير لنا إلا فى وضع الامور مواضعها وتنفيذ القانون والعدل والنظام احكمونا فان لم تستطيعوا فدعوا الامر لمن يستطيعه ، احكمونا وغلوا أيدينا فقد جئنا لنكون محكومين ، ومن الخير أن نكون محكومين لا حاكمين ، كم كنا نود أن نرى من يقول : انا هنا لحماية القانون وحماية العدل وحماية النظام

٢ ـ عدم أخذ الأمور بالحزم ـ إن الفتنة تبدأ فى الأزهر صغيرة وكان يمكن القضاء عليها فى مهدها بأيسر مئونة وأقل جهد، ولكنهم يطاولونها ويعادونها وفى كل يوم يتفاقم الأمر ويتسع الخرق حتى يتعذر عليهم علاجه وقديما قال الشاعر :

إذا طرف من حبلك انحل عقده تداعت وشيكا بانتقاض مرائره
فلا تغفلن أمرا وهى منه جانب فيتبعه فى الوهى لاشك سائره

حدثت فتنة الأزهر التى أشرنا إليها وفتنة دار العلوم فى زمن واحد ؛ فأما دار العلوم فأغلقت أبوابها فى ثانى يوم الفتنة وحرمت دخول الطلاب إليها، وأنذرتهم بالعقاب وبالحرمان من الامتحان فعادوا يعتذرون و تعهدون بعدم الاخلال بالنظام فأخمدت الفتنة قبل أن تشب .

وأما الأزهر ففتح كلياته للمضربين فأخذوا يخطبون ويهيجون تحت سمع أولى الأمر وبصرهم وفى كل يوم يزداد الهياج وتندلع ألسنة الفتنة إلى أن استفحلت وأعلن أولو الأمر أنهم عاجزون عن إعادة النظام ، ولو عالجوها فى مهدها ، وأخذوها بالحزم لقضوا عليها كما فعلت دار العلوم .

٣ ـ تخلف الأزهريين عن عصرهم فى فهم الحياة الجديدة ومقتضياتها ـ الحياة الجديدة تقتضى من كل طائفة أن تكون لها وحدة وأن يكون بينها تعاون ووفاق ، وأن يكون قسطها من المحبة عظيما ، وأن تقلل من البغض والكراهية جهد المستطاع . وألا تسعى إلى أغراضها إلا بالطرق المشروعة من الكفاية والنبوغ وأخذ العدة الكاملة للمناصب العالية . ولا يفكر أحد فى الوصول إلى الصف الأمامى بالتهييج وإحداث القلائل .

والحياة الجديدة تقتضي من كل مدرسة ومن كل كلية أن يتعاون المدرسون فيما بينهم وأن يتعاون الاداريون فيما بينهم ، وأن يتعاون أولئك وهؤلاء ، وألا يسمحوا للطلبة بالتدخل فى شئونهم . ومن الاجرام الذى ليس بعده إجرام فى الحياة الجديدة أن يحرض أحد المدرسين أو رجال الادارة الطلاب بعضهم على بعض أو على إخوانه المدرسين أو رجال الادارة .

والحياة الجديدة قد أتت بسلطات لم تكن ، وقواعد لم تعرف ، قوانين لم تعهد فى الحياة القديمة ، فينبغى للأزهر ألا يقف منها موقف العداء . وأن يساير الزمن وتطوراته مالم تمس الدين أو الخلق أو تدع إلى تقويض الجماعة . إن المرء لا يمكنه أن يعيش مالم يلائم بينه وبين بيئته ووسطه . وهذا القانون سار على كل شىء على الرأى والعقيدة والنظام والفرد والجماعة ، فعلى الأزهر أن يعى ذلك ويستفيد منه .

— ١٨ —

أرانى قد درت حول الموضوع ولم أخص فيه ، وجمجمت دونه ولم أصرح به ، ذكرت الأسباب القريبة ولم أذكر الأسباب البعيدة ، فهل أجد عندى من الشجاعة والايمان مايدفعنى إلى التصريح ؟

الساكت عن الحق شيطان أخرس ، وكاتم العلم قد لعنه الله والملائكة والناس اللاعنون ، وغاش المسلمين ليس منهم . كل أولئك قد فكرت فيه وأنا أنظر إلى الأزهر وهو يتداعى ويتساقط وينقض حجرا حجرا ، أنا أعلم السبب الحقيقى فى فساده ولا يمنعنى من البوح به والنصيحة لله ولرسوله ولائمة المسلمين وخاصتهم إلا اتقاء الناس ، واتقاء مجابهتهم بما يكرهون ، والمحافظة على علاقات المودة وروابط الاخاء ، ولكن الأمر جلل ، والمسألة أعظم من أن يداهن فيها ويكنى

عنها . وقد آن لنوازع الخير أن تتغلب على نوازع الشر ، وأن أصدع بما أعتقد أنه الحق ، لعل الله ينفع به فيطهر هذا المعهد العظيم من شوائب النقص ويبقيه الأمة الاسلامية منارا يهتدون به فى غياهب هذا الوجود . سأقولها كلمة عارية مدوية خالصة لوجه الله والحق .

علة العلل فى فساد الأزهر هى السياسة الحزبية . وكل ماذكرته من أسباب يرجع إلى علة واحدة هى هذه السياسة .

لقد كان الأزهر آمنا مطمئنا مجتمع المشمل لاحزبية فيه ولا انقسام ، وكان يؤدى رسالته من النصح والارشاد ، والتعليم والتربية . فلما دخلته السياسه قلبت مافيه رأسا على عقب مما ذكرنا بعضه ، وطوينا بعضه .

فى الأزهر عصبيات مختلفة . عصبية إقليمية ، يتعصب فيها أهل إقليم على أهل إقليم آخر ، وعصبية نفعية ، يجتمع فيها كل قوم على من يرجون النفع منه فيساعدونه ليساعدهم ويستخدمهم فيما يريد ، ويخدمهم إذا نجح فيما يريد . وعصبية سياسية ، فهذا ينتمى إلى حزب ، وذاك ينتمى لى حزب آخر وذلك يمسك بالطرفين ويتردد بين الحزبين . أو قل إنه وجدت العصبيتان الأوليان حين وجدت العصبية السياسية ، وللسياسة طرق وأبواب ولها حيل وخدع ، توجد كل شىء إذا أرادت ، وتركب لغاياتها كل سبيل متى رغبت .

نعم كان الأزهر يؤدى رسالته خير أداء ، فدخلته الحزبية فحولت اتجاهه وغيرت سبيله ، فأصبح وجل غرضه خدمة الأحزاب المختلفة ونيته يخدمها بوسائل الاقناع والدعوة ، ولكنه يخدمها بالشغب والاضراب والاخلال بالنظام

أصبح كل منتم إلى حزب يشغب على الحزب الآخر إذا تولى الحكم وكان الطلاب هم الأداة المسخرة فى هذا السبيل يرشى بعضهم ويضلل بعضهم ، ويستغل

مافيهم من حب البطالة للاضراب ، وتعطيل حركة العمل ، فلما اتجه الأزهر الى هذه الغاية الخسيسة بعد عن غايته الأولى الشريفة بقدر هذا الانحراف .

وإن المرء ليخيل إليه حين يرى بعض رؤسائه جاهدين فى خدمة أحزابهم وانين فى خدمة العلم والدين ، والتربية والخلق أنهم يعتقدون أنهم وجدوا هنالنفع الأحزاب،لا لنفع الطلاب ، ونفع الأمة بتثقيف هؤلاء الطلاب وجعلهم مواطنين صالحين ! وربما كانوا فى ذلك منطقيين مع أنفسهم لأنهم لم يصلوا إلى مراكزهم بالفوق العلمى والادارى وإنما وصلوا بالحزبية ، وعن طريق الأحزاب فمن الحق عليهم أن يعملوا لما رقوا من أجله وأن يهملوا مالا دخل له فى توظيف ،أوترقية .

إن الحزبية لاتختار عمال الأزهر من الأقوياء فى العلم ، ولا من الأقوياء فى الادارة ، وإنما تختارهم من أصحاب العصبية السياسية ، وهؤلاء فى الغالب يكونون من أصحاب المطامع الفاسدة الذين يجرون مع كل ريح . ويكونون ممن خسرت بضاعتهم العلمية فتكملوا بالتمسح بالأحزاب والاعتزاز بها .

ولعل قائلا يقول : إن الحزبية دخلت فى كل مكان ولم تنتج هذه النتائج التى أنتجتها فى الأزهر ، فنقول إن الأزهر ليس كغيره ؛ إنه قريب عهد بالخلافات الدينية ، وإن أخص خصائصها أن المخالف يعتقد العصمة فى نفسه ، والخطأ والضلال فى غيره ، وأنه على صواب وهداه يوشك المخالف أن يستنزله عنه ؛ وذلك يستدعى البغض والحقد على المخالفين ، فلما دخل الأزهريون فى الخلافات السياسية ، بقيت معهم مميزات الخلافات الدينية ، فكان البغض والحقد ، وأنواع التعدى والايذاء .

- ١٩ -

وإذا كانت حال الأزهر على ماوصفنا ، كان العلاج سهلا ميسرا وهو طرد الحزبية منه ، وجعله معهدا للأمة كلها على سواء ، لاتتوزعه الأحزاب ، ولا تنال منه الأهواء .

وهذا الدواء نفسه داوى به الأسلام أمة العرب ، فقد كانت قبله أمة قبلية ، يتعصب كل الى قبيلته ، وكانت لذلك بأسها بينها ، وكانت الحرب تقوم بين القبيلة والقبيلة فتمكث الأعوام حتى يهلك بعضهم بعضا . وقد أدى هذا الانقسام فى الداخل الى ضعف فى الخارج ، فذلوا للأمم المجاورة لهم ، ومازالت كذلك حتى جاء الاسلام فأبدلهم بهذه العصبية القبلية الضيقة عصبية اسلامية عامة واسعة تشمل الجزيرة كلها وتتعدى الى ماوراءها من أقطار شاسعة ، وبلاد بعيدة ، وحرم دعوة الجاهلية ، والعصبية القبلية ، وجعل المسلم أخا المسلم . لايخذله ، ولا يحقره ، وأعلن أن كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه ؛ وخاف أن ينزغ الشيطان بينهم فيعودوا الى ما كانوا عليه فقال : « من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا» وقال « ليس منا من دعا الى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية » .

فاذا العرب أمة ذات عز ومنعة وذات ثقافة وحضارة ولها علوم وفنون .

فاذا أريد الأزهر الاصلاح فالطريق أن يقتدى بالاسلام فى ترك الحزبية وذلك يتوقف على ثلاثة ، الأزهريين أنفسهم ، وأولى الأمر فيهم ، والأحزاب المصرية فأما الأزهريون فيجب عليهم أن يعلموا أن أولى الناس بأن يكون بعيدا عن الحزبية هو رجل الدين ، وأنه كالطبيب يجب أن يكون للجميع موضع الثقة ومحل العناية . وعلى ذلك سار رجال الدين فى كل ملة وفى كل عصر .

تطارد العدالة المجرم ، فاذا ظفرت به وحكمت عليه بالموت نظر فاذا المجتمع منه برىء وكل الناس له خصم ، ولا يجد بجانبه إلا رجل الدين يواسيه ويذكره عفو الله ورحمته ، وأنه يقبل توبة التائبين ويعفو عن المذنبين ، يذكره بذلك وهو واقف بين يدى الجلاد ، وفى طريقه إلى الموت .

إن رجل الدين يجب أن يكون محبوبا وموثوقا به ليقبل قوله إذا وعظ ، ويستجاب له إذا دعا .

ويجب أن يحب رجال الدين جميع الناس ، الصالحين والطالحين ، فأما الصالحون فلصلاحهم ، وأما الطالحون فلأنهم مرضى ، ومهمتهم الأولى فى الحياة علاجهم .

ويجب أن يجد الجميع عند رجل الدين طمأنينة وأمنا ، وأن يكون مثالا حيا للمحبة والرحمة والتسامح ، وأن يكون عروة لا انفصام لها تربط بين القلوب المتفرقة ، والأهواء المختلفة ، وتزول عندها الأحقاد والأضغان .

هذا مايجب أن يكون عليه رجل الدين ، وهذا مايجب أن يعلمه الأزهريون ليجعلوه مثلا أعلى لهم ، فأن أعجزهم ذلك فلا أقل من أن يعتبروا بما آل إليه أمرهم مما ذكرنا شيئا منه وكتمنا سائره .

إن سير الأزهر فى طريقه الذى خلقه الله له من البشارة والأنذار ، والدعوة إلى الله وخدمة الفضيلة وتعليم الدين واللغة يدعو إليه حب الأحزاب قاطبة فكلهم يحبه لأنه يؤدى واجبه ، ولا يبغضه أحد لأنه لا يتعرض لما ليس من شأنه ، أما تدخله فى الحزبية فيجعله مكروها ممقوتا يمقته من لم يكن معه من الأحزاب .

يجب أن تبقى هذه الطائفة سليمة صالحة فاذا فسد ما حولها كان الأمل معقودا بها لتصلح مافسد وترأب ماتصدع .

إن رجال السياسة لا يحدبون على الأزهر كما تحدبون عليه أنتم ، إنهم يقولون إما أن يكون معنا وإما أن يهلك ، وقد وضعنا فيه عوامل الهلاك والفساد ، الانقسام ، والبغضاء ، والتحاسد ، وحب الدنيا وهى كفيلة أن تنقضه حجرا حجرا ، وتجعله أثرا بعد عين .

إن لأمر لا يعنى أحدا غيركم ، ولا يهم أحدا سواكم .

— ٢١ —

وأما أولو الأمر فى الأزهر فأنى سأقسو عليهم قسوة لم أقسها على غيرهم . لأنى أعتقد أنه كان فى امكانهم أن يمنعوا الفوضى فلم يمنعوا ، وكان فى إمكانهم أن يصلحوا فلم يصلحوا ، وقد فتح الله على أبنائهم أبواب وزارة المعارف والمدارس الأهلية ، وهم بعملهم يعرضون أبناءهم لأن تغلق فى وجوههم هذه الأبواب . وكان فى مقدورهم أن يستزيدوا من نعمة الله عليهم بالجد فى تحسين بضاعتهم وتخريج شباب من الطراز الأول فى العلم والخلق والنظام .

إن المشترين مفتحة عيونهم ينتقون و يتخيرون ولن يأخذوا إلا أجود ما فى السوق من بضاعة فكان يجب أن يحرصوا كل الحرص على أن يكونوا خير المنتجين بضاعة فاذا اهملوا فى التربية العلمية فلم يتموا ما أوجبه القانون من مقررات ، وفى التربية الخلقية ، فتركوا السياسة الحزبية تفسد فى هذا النشء البرىء ، وفى النظام ، فلم يعودوهم الدقة والانتظام فهم حريون بكل قسوة ، جديرون بكل لوم وتفنيد ، إنه يجب أن نحذرهم الهوة الفاغرة فاها لتبلتع الأزهر ومن فيه ، لعلهم يرحمون أنفسهم وأبناءهم ولعلهم يشفقون على معهد وضع أمانة فى أيديهم ليردوه إلى الاجيال كما كان أو خيرا مما كان !

علمت الامم كيف تستفيد من مدارسها فى إصلاح المجتمع ، علمت أن المدرسة مجتمع صغير ، ما يستفيده التلاميذ فيه يكونون عليه فى المجتمع الكبير فتنشئوهم على احترام حق الغير ، وعلى احترام القانون ، وعلى النظام التام ، الطاعة للرؤساء فى حدود الواجب ، ولا يمكن ذلك الا بالعادة المتكررة التى لا مثنوية فيها ولا هوادة فدخول التلاميذ حجر الدراسة فى وقت واحد وخروجهم منها فى وقت

واحد ، وعدم التسامح مع من يجيء متأخرا واستمرار ذلك طول سنى الدراسة هذا كله يغرس النظام فى نفوسهم ، واحترام قوانين المدرسة ، يعلمهم احترام قوانين الدولة ، وطاعتهم لرؤسائهم فى حدود الواجب ، عدم التهاون معهم فى العصيان يغرس فى نفوسهم الطاعة لاولى الامر فى حدود الحق الواجب ، وتنشئتهم على صيانة حقوق الغير ، وعدم التعدى على التلاميذ المدرسين والمدرسة تجعلهم مواطنين صالحين يحترمون حقوق مواطنيهم لا يتعدون عليهم ، لا يغتصبون حقوقهم ، فاذا طلبنا أن تبث المدرسة هذه الخلال فذلك ليس للمدرسة فقط بل هو لما بعد المدرسة أيضا ، وليس لمصلحة وقتية بل هو لمصلحة دائمة فاذا تهاونت المدرسة فى بث هذه الخلال فى التلاميذ ، وتركتهم يتعدون على الغير ، ويعبثون بالنظام ، ويعصون أولى الامر ، ويستهينون بالقانون فليست تسىء الى هاوحدها ، بل تسىء إلى المجتمع الذى سيكونون فيه وليست الاساءة من الصغائر ، بل هى من أعظم الكبائر ، لان هذه الخلال التى نشؤا عليها سيكونون بها فى المجتمع ، وسيعدون بها من عداهم فانظروا أين أنتم مما ذكرنا ؟ أنى أكتفى هنا باللمحة العابرة ، واللفتة الخاطفة ولا استقصى .

لقد كنا ننتظر ان نسائلكم ماذا فعلتم لتلائموا بين لازهر والعالم المحيط به ؟

ماهى الغايات التى تعدون أبناءكم لها ؟ وهل أنتم ممن يربون التلاميذ للمجتمع أو لانفسهم ! هل تودون أن توجدوا بفضل التربية مجتمعا أفضل .

وماهى طرقكم ووسائلكم لما تختارون ؟

فاذا أنتم فى مبدأ الطريق ، نريد منكم حفظ النظام وتربية الابناء على الطاعة فقط مما نالته المكاتب المصرية القديمة ، وحظى به الفقيه والعريف .

فكيف نطلب منكم الكثير ، وقد منعتمونا القليل ؟ وكيف نطلب منكم

العظيم ، وقد أيأستمونا من الجقير ؟

أيها السادة لقد حكمتم الازهر حكما حزبيا فيه كل مساوىء الحزبية ، فيه أهدرت الكفايات وقدم المتأخر وأخر المتقدم .

لقد لقى منكم مخالفوكم العنت والجور فقد أشليتم عليهم الطلبة ، وقد تحكمتم فى الضمائر والخطرات ، وحاسبتم على الرأى والمبدأ وأردتم أن يدوس المرء مبدأه بقدميه لينزل على ما تريدون ، وإن لم يفعل فصنائعكم يلغون فى أعراضهم ويأكلون لحومهم ، بثثتم العيون والأرصاد حول من تشكون فيه واستعملتم المدرسين والطلاب فى الجاسوسية حتى عاش المرء فى جو خانق كأنه فى حكم أعظم المستبدين عتاً وجورا !

ما أشقى العالم بالجاهل ، والفاضل بالرذل ، وصاحب المبدأ الذى استمسك به وجعل يصدر عنه ويبنى أفعاله عليه ، بالذى لا مبدأ له ولا يعمل إلا ما توحى به المصلحة الحاضرة . تعجبون لماذا لا يترك فلان رأيه مع ما ينزل به من المصائب والمحن وفاتكم أن الرجل ذا الضمير العلمى لا يملك أن يغير رأيه . أو يجهر بخلاف ما يعتقد ، وأنه يلقى المحن فى سبيله ولا يملك أن يتخلى عنه .

معكم الكثرة وبيدكم السلطان فاقتلوا كل فكرة واخمدوا كل صوت ولو كان ينادى بالوحدة وترك الحزبية وبا تشيع للحق ، هكذا فعلتم هكذا حكم الأزهر فى القرن العشرين !

إنكم تربون الجيل الجديد ، فهل تأمنون طالبا سخر لخدمة الأحزاب ، واشترى بالمال ، واستعدى على هذا وذاك ، أن يكون قاضيا عادلا . وموظفا نزيها ، ومواطنا شريفا ؟

وهل تثقون أن طالبا يعيش فى جوله سر وعلن ، وعلانيته تخالف سره يخرج

إلى الحياة صريحا فى الحق ، مجاهرا بالصدق ؟

لا تنتظروا أن يأتيكم الاصلاح من غيركم ، فلن يقدر عليه إلا أنتم ، ولن تقدروا عليه الا مجتمعين ، لا يستطيعه الرئيس الأعلى وحده لأن رؤساء المعاهد والكليات هم الرؤساء المنفذون المباشرون ، ولا يستطيعه الرؤساء المباشرون إلا بمعونة الرئيس الأعلى ، فتعاونوا على الاصلاح فيما بينكم ، فهذه حال تغثى النفوس ، وتبعث على الاشمئزاز والتقزز

كل هذا الفساد ، وكل هذا العبث من الحزبية فانبذوا الحزبية وارموا بها كما يرمى بالثوب الخلق .

فأن ابتم إلا الحزبية فحزبية كحزبيه رجال الجامعة ووزارة المعارف يختلفون مايختلفون ، ويتعصبون مايتعصبون ولكنهم يتفقون على مبادىء لايجوز الاختلاف فيها . ولا لاخلال بها . وهى منهم فى موضع التقديس . من هذه المبادىء أن التربيـة والتعليم فى المحـل الأول وأما الحزبية فهى فى المحل الأخـير . ومنها أنه لا يصح أن يضحى بالنظام ، ولا أن تنصر الفوضى . ولا أن تجعل سبيلا لنيل غرض من الاغراض كائنا ما كان .

ومنها أن المدرس مدرس ، والادارى إدارى ، والطالب طالب ، تقام الحدود بينهم ولا يعدو واحـد طوره ، وأن المدرسين والاداريين يتعاونون فيما بينهم ويتناصرون لتثبيت النظام ، ومطاردة الفوضى ، ولا يستعينون بالطلاب ولا يضربون بعضهم ببعض .

أخوف ما أخافه أيها السادة أن تشعر الدولة بهذا الفساد فى الحكم ، وهذه الفوضى فى الادارة ، وتشاهد عيانا ما وصفناه ، فترى أن ذلك من ضعف المشيخة فى الحكم ، وأنهم كما لم يصلحوا أن يلوا أمور غيرهم لا يصلحون أن يلوا أمور

أنفسهم فتحرم الطائفة هذه الولاية .

إن الدولة لا تقر هذه الفوضى فى الازهر لان الازهر أولا جزء من الأمة ، ومن واجبها بث الامن والعدل والنظام فى جميع البلاد .

ولانه ثانيا جزء مخالط للامة ، للمدارس والجامعات ، والفوضى تعدى ، والدولة يهمها أن يبقى جسم الامة سليما .

ولأنه ثالثا يخرج رجالا يلون وظائف الدولة فى المحاكم الشرعية وفى التعليم فى المدارس ، والدولة تحرص أشد الحرص على أن يتحلى هؤلاء بالنظام ليبثوه فى تلاميذهم وفى الجو المحيط بهم ، وتأبى كل الأباء أن يكون الأمر على غير ذلك فخافوا على هذه الولاية أن تسلب ، وعلى هذه الأبواب التى فتحها الله على أبنائكم أن تغلق ، واستديموا نعمة الله عليكم وعلى أبنائكم بحسن الرعاية لهم ، وبالعدل ، وبالاستباق إلى الخير ، وبالاستفادة من كل ناصح ، وأفهموا الدولة بالفعل أنكم تخرجون جيلا قويا فى العلم ، قويا فى الخلق ، قويا فى النظام .

— ٢٢ —

وأما الأحزاب فانى أقول لهم يارجال السياسة أن الأزهر معهد دينى قد أدى للأمة الاسلامية خدمات ألف سنة أو تزيد وقد حافظ عليه سلفهم طوال هذه المدة فحافظوا عليه كما حافظوا ، واتركوه يؤدى ما عليه من واجب للدين والأخلاق كما تركوه ، واخشوا حكم التاريخ عليكم ، إذا أدخلتم الأزهر فى السياسة وزججتم به فى تيارات الحزبية لم تنتفعوا به ، بل كان ضرره أكثر من نفعه ، فاذا دخل فى حزب وناصره لحالات خاصة ، وظروف معينة قدرت الأحزاب الاخرى أن تضمه اليها فى مثل هذه الظروف وهذه الاحوال ، فيكون على الحزب الاول بعد

أن كان له ، وللحزب الثانى بعد أن كان عليه ويجد من ضرره مثل ما وجد من نفعه ومن خذلانه مثل ما وجد من نصره ، فليس من الخير للاحزاب فى مصر أن يمرنوه على الدخول فى بحر السياسة الصاخب ، وفى لجج الاحزاب المتلاطمة لانه حينئذ يضر ولا ينفع ويفسد ولا يصلح .

أحوج ما تحتاج اليه الامة رجال خرجوا عن جميع الاحزاب فلم يدخلوا حزبا ، وليس لهم هوى فى حزب ولا بغض لحزب ، يرون أمتهم كلها سواء ، يتخذون الصغير ابنا . والكبير أبا ، والمساوى أخا ، هؤلاء تحتاج اليهم الامة ليردوا طغيان الحزبية إذا ما طغت ، وليكبحوا جماحها إذا ما جمحت .

فى مصر خلافات لم تجن منها خيرا بل جنت منها صابا وعلقما ، وهذه الخلافات يجب أن تزول — ولن تزول إلا بتدخل قوم عرفوا بالحياد وحسن الجميع الظن بهم ، فيستمعون لهم ويستجيبون لدعائهم ، ونحن نريد أن يكون الأزهر هو ذلك السفير ، سفير الخير والاصلاح .

أيتها الأحزاب ، إن الأزهر قد وجد ليؤدى أعظم مهمة فى الوجود ، وهى بعث الايمان فى النفوس لينتج الخلق الرضى ويطرد الخلق الذميم . وإذا تحلت الأمة بالأخلاق الفاضلة ، وتخلت عن الأخلاق الرذيلة حسنت الأفعال وقلت الجرائم ، وعز المجتمع ، وسعدت الأمة ، فدعوه يؤدى رسالته ، ولا تفسدوا هذا المعهد المحتاج اليه أعظم الاحتياج ، وإلا كنتم كقوم لهم قليب ماء يستقون منه ويسقون منه زروعهم وماشيتهم فعمدوا اليه فغوروا ماءه ، وهدموا بناءه ، واصبحوا لا يجدون الماء المعين .

يا رجال الأحزاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم وبين المصريين جميعا حاكمهم ومحكومهم أن نجنب الأزهر السياسة الحزبية ، وأن نبعده عن التيارات

المتعارضة ، وأن نجعله للأمة جمعاء ، بل للأمم كافة يحمل الأمانة ويؤدى الرسالة ونحب هنا أن ننبه على أمر ينفعنا إذا فكرنا فيه فى كثير من شؤننا وهو أننا فى سنة ١٩١٩ لم ننكر على التلاميذ اشتغالهم بالسياسة ، ولم نستهجن إضرابهم عن الدرس والتحصيل ، لأننا كنا نعتقد أننا نقاوم سلطة غير شرعية ، فلا ضير أن تعبأ جميع قوى الأمة لمقاومتها ، ولا ضير أن تضيع على أبنائنا سنة أو سنتان فى سبيل هذا الغرض الأسمى ـ تحقيق الاستقلال ـ فاذا ما نلنا ذلك عادت الأمور إلى مجاريها الطبيعية ، والتزمت الحدود فلا يعدو واحد حده ، والآن وقد اتفقنا مع بريطانيا على شىء ، وأصبحنا أمام سلطات شرعية ، فلا يجمل أن يضرب التلاميذ ليقاوموا حكومة وطنية قائمة ، ولا يجمل أن يشتغلوا بالسياسة الحزبية ، ولا يحسن أن يهملوا القانون ويخلوا بأحكامه .

إن إضراب التلاميذ ، وعدم طاعتهم أوامر رؤسائهم ، وعدم احترامهم القانون ، فوضى لا تحتمل ، وكانت قد أحلت برهة من الزمن ثم عادت حراما كما كانت ، إن أبناء الأمة يجب أن يعودوا احترام القانون وأن يعودوا النظام ، ولا يسمح لهم أبدا بالأخلال بذلك . وإلا فرطنا فى أبناء اليوم ورجال المستقبل وأخرجنا جيلا فاقد النظام ، واحترام القانون ، وهذا شر ليس بعده شر .

إنهم يجب أن يتزودوا فى شبابهم بزاد العلم والمعرفة وأن يثقفوا عقولهم فى هذه الفترة من الزمن ولا يسمح لهم بالأضراب عن التسلح بسلاح العلم ، وإلا أخرجنا جيلا فجافى العلم والمعرفة ، وهذا شر لا يقل عن سابقه .

يجب أن نعلم ذلك فنجنب أبناءنا جميعاً فى المدارس والمعاهد والجامعات السياسة الحزبية ونتواضع على ذلك فيما بيننا ، ونعده فساداً ليس بعده فساد ، من الخير أن نضع قانونا يحرم ذلك ، ويعتده جريمة يعاقب عليها ، فليس إتلاف الشباب بأقل

خطرا من إتلاف الزروع ، واحراق البيوت ، والافساد فى الأرض ! بين ظهرانينا مدارس أجنبية ، فهل رأيتم يوما ما تلاميذها خرجوا مضربين صاخبين هاتفين ، وهل رأيتموهم يسيرون فى الشوارع يحطمون المصابيح والمركبات العامة ، ويقفون حركة المرور ، هل رأيتموهم جعلوا الجهل وسيلة لنيل مطلب ، أو بدر منهم مايدل على أنهم لم يتعودوا النظام واحترام الملكية والقانون لماذا يكونون كذلك ويكون أبناؤنا على ما تعلمون ؟ هذه تربية قوم آمنوا بالشباب فحافظوا عليهم من كل ما يفسد تربيتهم وآمنوا بالمدرسة فنشأتهم على هذه التربية القويمة ، وماذا يكون الحال إذا خرج هؤلاء مسلحين بسلاح العلم والخلق والنظام وخرج ابناؤنا عزلا من هذه الأسلحة ؟ اليست الغلبة فى الوجود للعلم على الجهل وللأخلاق القويمة على الاخلاق المعوجة ، وللنظام على الفوضى ؟

— ٢٣ —

إن هذا الموضوع شائك والطريق اليه غير معبد وقد علمت ذلك فحاولت أن أسير فيه دون أن أرتطم بصخوره أو أتعثر فى عقابه ، فحاولت ما استطعت أن أرضى ولا أغضب وأن أخص ولا أعم ، وأن ابهم ولا أعين وأن أذكر بالمصلحة العامة دون الخاصة ، بل أبنت أن المصلحة العامة والخاصة تقضيان جميعا بتجنيب الأزهر مزالق السياسة ، فأن أفلحت فيما حاولت فذلك توفيق من الله ، وإن أسىء بى الظن ولم أوفق فيما أحاول فلست بأول من ناله الضر فى سبيل الخير ولا بأول ناصح قد استفاد من نصحه الظنة .

ولست أبالى حين أقتل مسلما على أى جنب كان فى الله مصرعى

هذه كلمة عنترة فى صحف حسناتى ، لأنى لم أقصد بها الانتقام من أحد ، ولم أقصد بها الأضرار بأحد ، ولم أقصد بها نصرة فريق على فريق ، وإنما قصدت

بها المصلحة العامة ، والخير المطلق ، وإرضاء الدين والحق .

ولا يظنن أحد أننى بهذه الدعوة قد أخذت منه الأزهر أو حرمته اياه بعد أن كاد يأخذه ، إننى قد قمت بهذه الدعوة والأزهر أشلاء متناثرة بيد هذا شلو وبيد ذاك شلو ، إننى قمت بهذه الدعوة لأجمع الأزهر وأوحد كلمته ، وأوجهه فى طريق الخير ليوجه الأمة فى هذا الطريق نفسه ، ولعله يكون نصيب كل حزب وكل مصرى منه مجتمعا متحابا خيرا منه متفرقا متباغضا ، يمشى على غير الطريق السوى ، الآن علمت الأحزاب المختلفة أننى سلم لها لا حرب ، وأننى لم أنأ عنها إلا لأقرب منها . ولم أكره الحزبية إلا لأنفعها وأننى مستقلا خيرلها منى متحزبا الآن علمت هذه الأحزاب أنه من الخير أن تترك بعض أبناء الأمة يفكرون بفكر مستقل . وليس من الخير أن تلجئهم إلى أن يسيروا فى طريق سارت فيه القوافل ، وأن تلجئهم إلى رأى العامة والدهماء ؟

-- ٢٤ --

ما كدت أفرغ من كتابة ما تقدم حتى تخيلت أن الأزهر أصغى إلى ماقلت وعلم أنها نصيحة من والد رحيم ، وأخ شفيق . وأنه لم يضطر إلى ذكر العيوب إلا كما يضطر الطبيب إلى تشخيص الداء ، ليضع له ما يناسب من الدواء ، فجاهد نفسه على ضوء ما رسمت من خطط فانتصر عليها ، ورمى بالحزبية من النافذة ، وقاده قوم عرفوا تطور العقل لانسانى ، وتاريخ التربية ، وعلم النفس ، وكيف يستفيد منه المربى ، وعرفوا أسباب رقى الامم وانحطاطها وعرفوا كيف يصوغون النفوس البشرية على الخلق القويم ، والارادة القوية والعقل الحر المتكر ، كما يصوغ الصائغ الاساور والعقود ، وعلموا أن مهمة الازهر ليست حشو أذهان التلاميذ برسوم القواعد ، وحدود العلوم ، بل مهمته تثقيف العقول وتقويم الخلق

وتطهير النفوس من الخرافات التى تقعد بالامم عن النهوض والرقى وغرس العقيدة الدينية صافية من كل شوب ، فخرجوا شبابا كالماء الطهور - كما يقولون - طاهرا فى نفسه مطهر لغيره فانبعثوا فى جميع بلاد الاسلام يطهرون العقول من جهالاتها وخرافاتها ، والنفوس من رذائلها ونقائصها ، ودفعوا بأمم الاسلام إلى ركب الانسانية المغذ فى السير ، يسيرون معه جنبا إلى جنب ، لا وانين ولا متخلفين ، يبتكرون كما يبتكر ، ويعمرون الكون كما يعمر ويكشفون عن أسرار الوجود كما يكشف ، ويزيدون فى رفاهية العالم كما يزيد فان صدق هذا الخيال ، وتحقق هذا الأمل ، فليس لى فى ذلك من فضل ، بل الفضل كله لصاحب الجلالة الملك فاروق فقد رعى الشباب فكان حقا علينا أن نرعاهم ، وأراد منهم أن يكونوا عدة البلاد الحصينة فوجب علينا أن نعدهم كما أراد ، علم - أعزه الله - ان الأمة بشبابها ، وان الشباب بعلمهم واخلاقهم ، فكرم النابغين منهم فى كل عام ليتنافسوا فى النبوغ فيفوزوا بهذا التكريم ، وقرن هذا التكريم بنصائحه الغالية التى تنير لهم السبيل ، فوجب علينا أن نعينهم ونسددهم ، وأراد منهم أن يسيروا ببلادهم قدما إلى العلا ، فوجب علينا أن نزيل من طرقهم العقاب والصعاب .

لقد وضع ﴿ الفاروق ﴾ الأساس فبنينا ، ونهج السبيل فاقتدينا ، فله من الله الثواب والأجر ، وله من رعيته المخلصة الأمينة الدعاء والشكر

القاهرة فى أول المحرم سنة ١٣٦٥

1945

R7

LG
511
C45
A6x
1945

APR 1980

٣٧٧٫٨
٧٠٣٤
٢٨٦٢٨٧

TIME KEPT

Books may be kept two weeks unless otherwise specified.

FINES

A fine of P.T.2 for the first day and P. T. 1 / 2 for each following day will be imposed for books kept over time, except in the case of reserve books, when a fine of P . T . 10 will be charged.

DAMAGES

All losses or injuries beyond reasonable wear, however caused, must be promptly adjusted .

The American University in Cairo
Library
March 29, 1995
0 0 0 0 0 0 3 2 3 7 4 7

LG
511
.C45
A6
1945